

## مقام إيران في تاريخ الفنون

قدّر لبعض الشعوب أن يكون لها في تاريخ المدنية شأن خطير، وأن تكون في ميدان الفنون إماما ينسج الآخرون على منواله ويقتفون أثره . وعلى رأس تلك الشعوب الاغريق والىرانيون وأهل الصين .

أما الاغريق فقد تركت على يدهم الأساليب الفنية الكلاسيكية، التي قامت على أسسها الفنون الغربية . وكذلك امتد نفوذ الأساليب الفنية الصينية في ربوع آسيا، ولم ينج من تأثيرها فن في تلك القارة المترامية الأطراف . بينما كانت إيران ملتقى الفنون القديمة في الشرق الأدنى؛ ونمت فيها أساليب فنية، تأثرت بفنون بابل وأشور ومصر والهند وبلاد اليونان، وانتشرت في العصور القديمة والعصور الوسطى، وأثرت في فنون الأمم الأخرى .

وإننا، إذا استثنينا الفن الاغريق القديم، لا نكاد نعرف أى فن آخر، قدّر له أن يمتد امتداد الفن الايراني، بل إننا نستطيع أن نقول في ثقة واطمئنان إنه ليس هناك فن عظيم لم يأخذ عن الفن الايراني شيئا من زخارفه أو أساليبه؛ فان الفن المصرى القديم، والفنون الاغريقية، والرومانية، والبيزنطية، والصينية، والهندية، كلها مدينة للفن الايراني ببعض أشكال التحف، أو أساليب العمارة والزخرفة، أو أسرار الصناعات الفنية الدقيقة .

والواقع أن هذه العظمة الفنية في إيران وليدة السيادة في ميادين الحرب والسياسة والمدنية؛ فقد كان الايرانيون والىغريق يقتسمون الحكم في العالم القديم حينما من الزمان . ولما فكر الاسكندر الأكبر في تأسيس

امبراطورية تضم بلاد الشرق الأدنى تحت لواء الاغريق، اتجه نظره الى إيران ليتخذها مركز هذه الامبراطورية؛ ولكنه مات قبل أن يظفر بتنفيذ مشروعه العظيم، بيد أن حروبه في الشرق الأدنى مهدت السبل لنشر الثقافة الاغريقية فيه؛ فأضحت إيران وأفغانستان حيناً من الزمن ملتقى الأساليب الفنية الإيرانية والاعريقية والهندية، بل كان أثر الثقافة الاغريقية غالباً في الأجزاء الاغريقية من الحضبة الإيرانية، وهي الأقاليم التي كان يحكمها الأمراء الاغريق الذين آلت إليهم امبراطورية الاسكندر.

واستولت على مقاليد الحكم في إيران منذ سنة ٣٣٤ ميلادية دولة بنى ساسان؛ ووجد ملوكها الشعب الإيراني؛ وقضوا السنين الطويلة في حروب ومناوشات مع الدولة البيزنطية في الغرب، والأقوام الرحل الذين كانوا يشنون الغارات على الحدود الإيرانية في الشرق أو الشمال. وبين الذين خلدتهم الآثار الفنية من الأباطرة الساسانيين شابور الأول، الذي هزم الامبرطور الروماني فالريان عند مدينة الرها سنة ٣٦٠ ميلادية، فخلد الإيرانيون هذا النصر في نقوشهم المحفورة في الصخر— ولا سيما في نقش رستم على مقربة من مدينة پرسپوليس ومدينة اصطخر الحالية — ورسموا القيصر الروماني راكعا أمام عاهلهم الجبار. كما خلدت الآثار الفنية اسم بهرام جور الذي سارت الركبان بحديث مهارته في الصيد فرسمه الفنانون الإيرانيون في مناظر الصيد المختلفة<sup>(١)</sup>.

ولم تكن تلك الحروب الطويلة في العصر الساساني تمنع الشعب من العناية بالفنون الجميلة، بل كانت من أهم عوامل الاتصال بين الشعبين

(١) انظر Zaky M. Hassan : Hunting as Practised in Arab Coun-

tries of the Middle Ages ص ٨ - ٩ واللوحة رقم ١

العظيمين في ذلك الحين: الإيرانيين والاعريق ، فزاد التبادل الفني رغم أنف الفريقيين ، وتسرب الى فنون بيزنطة كثير من الموضوعات الزخرفية الإيرانية ، ولم تلبث هذه الموضوعات أن اندمجت في الفنون البيزنطية اندماجا تاما ، ثم نقلتها أقاليم البحر الأبيض المتوسط التي كانت تابعة لبيزنطة في ذلك الحين .  
ويبدو ذلك واضحا في زخارف كثير من المنسوجات التي عثر عليها المنقبون عن الآثار في مصر العليا ، كما يظهر أيضا في كثير من الزخارف التي استخدمت في العصر القبطي ، ولا سيما الرسوم المحفورة في الحجر والخشب .

على أن الحروب الطويلة بين بيزنطة وإيران ، فضلا عن الحالة الاجتماعية والدينية فيهما ، أنهكت قواهما ، فأصبحتا في بداية القرن السابع الميلادي عاجزتين عن صد تيار الجيوش العربية التي جمعتها وحدة الاسلام ، فسقطت إيران ، وفقدت استقلالها السياسي ، وأصبحت جزءا من الامبراطورية الاسلامية التي أتيح للعرب تشييدها ، كما فقدت بيزنطة مستعمراتها في الشرق الأدنى ، ولم تنج بنفسها من جيوش المسلمين إلا بفضل البحر الذي كان يفصلها عنهم ، والذي لم يكن العرب يحسنون ركوبه في بحر الاسلام .

وقد كان الفتح الاسلامي في إيران أعمق أثرا في تاريخها من فتح الاسكندرية ، بل إنه أقالها من عثرتها ، فان زوال استقلالها السياسي لم يكن له النتيجة المتظرة والمنطقية في اضمحلال مدينتها وتأخر فنونها . وسبب ذلك أن العرب كانوا قوما عمرت قلوبهم بالايان وتحلوا بالشجاعة والاقدام ، ولكنهم أدركوا بما فيهم من حكمة طبيعية موروثه أنهم في حاجة إلى معونة الإيرانيين في أنظمة الحكم والأساليب الفنية ، فما كاد عصر بني أمية ينتهي بما حفل به من فتوحات وعصبية للعرب ، حتى نقل العباسيون مقر الحكم إلى بغداد ،

فكان هذا ايذانا بانتصار إيران في ميدان الحياة الاجتماعية والفنية والعلمية؛ ولا غرو فقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الإيرانيين في خراسان .  
وسرعان ما أصبحت إيران في طليعة الأمم الإسلامية عناية بتشيد  
العمائر الفخمة وصناعة التحف النفيسة . ولم يكن عسيرا أن تتعقد لها  
الزعامة في الفنون الإسلامية؛ فان الشعب الإيراني فنان بالفطرة . وحسبك  
أن تشاهد بيتا أو قصرا إيرانيا، أو ترى تحفة مصنوعة في إيران لتدرك ذلك  
وينكشف لك .

وقصارى القول أن تطوّر الفنون القديمة في الشرق الأدنى تم على  
يد الإيرانيين ، فكان لهم بعد ذلك القسط الأجل والقدح المعلن في الفنون  
الإسلامية . والواقع أن الترك نقلوا عنهم معظم أساليبهم الفنية ، بينما  
العرب أنفسهم لم تكن لهم تقاليد فنية عريقة . وقد عقد ابن خلدون  
في مقدمته فصلا " في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة  
الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول " وذكرفيه أن السبب في ذلك  
بداوة العرب وبعدهم عن الصنائع ، وأن الدين كان أول الأمر مانعا من المغالاة  
في البنيان والاسراف فيه في غير القصد " فلما بعد العهد بالدين والتحزج  
في أمثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب أمة  
الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم اليها أحوال المدعة والترف  
فحينئذ شيدوا المباني والمصانع " .

ومما ساعد على ازدهار الطرز الفنية الإيرانية أن إيران ، منذ القرن الرابع  
الهجرى ( العاشر الميلادى ) استعادت استقلالها السياسى والثقافى؛ فبعثت  
المدنية الإيرانية، ونمت وترعرعت في ربوعها الآداب والفنون .